جبرائيل تقلا باشا

لمحمد زكي عبد القادر

في السادس من شهر يوليو الماضي ، فقدت الصحافة العربية كبيراً من بُناتها ، هو المغفور له جبرائيل تقلا باشا صاحب «الاهرام» . وقد كان تقلا باشا شخصية مستترة ، تبدو عظمتها في آثارها ، أكثر مما تبدو في ذيوع اسمها . ذلك انه كان يحب عمله أكثر مما يحب نفسه ، بل لعلّ نفسه كانت تتجسم له في عمله ، فلم يكن يجد ما يفرق بينهما . ومن هنا كره أن يتطلع باسمه ، ولو فعل ما كان أحد لينقده ، فان مئات الناس ممن هم أقل منه شأناً وكفاية وأثراً تدوي أسماؤهم صباح مساء . ولم تكن تنقصه الوسيلة للاذاعة والاعلان ، فان «الاهرام» بلغت من الانتشار مبلغاً كبيراً . ولكنه آثر أن يكون المجد كله والذيوع كله لجريدته ، وكان يجد رضاء النفس كاملاً ، كلما أتيح له أن يصعد بالاهرام في سلّم الفن الصحفي درجة واحدة

وأخص ما كانت تمتاز به شخصية تقلا باشا التجديد وسبق الزمن . كان حركة دائبة ، لا يحقق أملاً من الآمال ، إلاّ ليرنو الى أمل جديد . ولم تكن الصعاب ، مهما تثقل وتأتها ، لتصرفه عن السير الى الأمام . وقد ورث « الاهرام » وهي جريدة ثابتة القدم لها فراؤها ومطبعتها وادارتها ، ومع ذلك فان من يقارن بين « الاهرام » التي ورثها و « الاهرام » التي خلفها ، يكاد يفقد أوجه الشبه بين الاثنين . ذلك أن تقلا باشا — كما قدمت — كان بانياً مجدداً ، له أفكاره واتجاهاته ومطامحه . وقد سبق « بالاهرام » ما كانت تحتمله النهضة المصرية ذاتها ، فبلغ بها في نحو عشرين سنة مبلغ الصحف الكبرى في أوربا وأميركا . والصحافة — كما يقال — مرآة النهضة الثقافية في البلاد ، فهل بلغت مصر من هذه الناحية مبلغ أوربا وأميركا ؟ ما نحسب إلاّ ان يكون الجواب سلباً . ومع ذلك فان تقلا باشا قد استطاع ، بفضل نفسه وشدة غيرته على عمله ، أن يدفع النهضة الثقافية في البلاد الى الامام دفعاً

وقد كانت « الاهرام » ، قبل أن تخفض الصفحات بسبب ظروف الحرب ، مدرسة للثقافة العامة ، تطالع قراءها كل صباح بالاحداث المختلفة في الاقتصاد والاجتماع والسياسة

الداخلية والخارجية ، فتثير فيهم الاهتمام بها ، وتدفعهم الى درسها والاحاطة بمختلف التيارات الجديدة في شتى بلاد العالم . وقد ساعد اتقان اصدارها من الوجهة الفنية على ذيوعها ، فكانت تنقل هذه الثقافة الى عشرات الألوف من القراء ليس في مصر فحسب ، ولكن في سائر البلاد التي تنطق بالعربية . ومن هنا كانت خدمة تقلا باشا للنهضة المصرية خاصة ، وللنهضة الشرقية عامة . ومن هنا كان ما أشرت اليه من دفعه لها الى الامام دفعاً ، فكانت جريدته تسبق النهضة وتجدّبها وراءها

وكان من المحتمل لو لم يكن تقلا باشا مجدداً طموحاً ، سخيّاً في الانفاق ، مغامراً في سبيل تحقيق أهدافه ، أن تظل « الاهرام » حيث تركها أبوه ، أو أن تبلغ من التقدم مبلغاً يناسب النهضة العامة في البلاد ، ان لم تتخلف عنها قليلاً . ولكن « الاهرام » كوسيلة من وسائل نشر الثقافة تفاعلت مع هذه النهضة فدفعت كل منهما الاخرى . وكان دفع « الاهرام » لها في أخصب ، أغنى وأعظم

وقد كان من المحتمل أن لا يكتب لتقلا باشا كل النجاح الذي كتب له ، لو لم يسند روح المجازفة الذي كان بعض خصائصه ، علمٌ وافر ، وذكاء نافذ ، ونظرة صادقة للحوادث والاشخاص واحتمالات المستقبل . وقد كان عنيداً ، ولكن عناده لم يكن عناد الجاهل المغرور ، بل عناد الدارس الباحث المقتنع . وقد كان له من سعة فكره وعمق ثقافته ما صرفه عن كثير مما يعنى به عامة الناس ، ويحول بينهم وبين الجد المثمر والعمل الناجح . فلم تكن الخلافات الدينية او المذهبية او الثقافية لتحمله على التعصب لواحدة منها او الانحراف عن الأهداف التي وضعها نصب عينيه ، فتسمع لكل الآراء ، ولشرت جريدته كل الابحاث فتمثلت فيها الحرية الكاملة : حرية البحث والرأي ، حرية الكفاح والدفاع ، فلم يكن من هؤلاء الذين لا يحبون الا آراءهم ولا يتعصبون الا لها ، ويكرهون ان يعرف الناس أو يقرأوا غيرها . كان حق قرائه عليه أسمى عنده من كل شيء ، حتى من حق نفسه عليه

***

وكان يحب صناعته حبّاً جمّاً ، ويعنى بجريدته عناية لا حد لها . كان حريصاً على اسمها وسمعتها . ولم يكن مبعث ذلك كله انه يبتغي الربح وجمع المال بقدر ما كان يبتغي أن يبلغ بعمله غاية ما يوجد . إرضاء لهوى نفسه . فكان أشبه بالفنان يعنيه ان يجيد ريشته او قلمه عن خواطر نفسه ، فاذا بلغ ذلك فقد بلغ هواه . ومن هنا كان سخاؤه تقلا باشا في الانفاق سخاء منقطع النظير على كل ما يحسبه تحسيناً او ترقية لجريدته دون نظر أو مقارنة بين ما يصرف وما يعود . ومن هنا أيضاً كانت طفرات « الاهرام » التي أثارت عند بعض

اصدقاء تقلا باشا النقد له ، بل والتحذير من عواقب ما سموه اندفاعاً . أدخل قسم التصوير في « الاهرام » وكان الاول من نوعه في الصحافة اليومية وكان خطوة كلفته الكثير من الجهد والمال . وأثار عمله حينئذ نقداً وتحذيراً ، ولكنه لم يتردد في انفاذ ما اعتزمه . وما هي الا أشهر حتى اذا ما سموه « اندفاعاً » يصبح انقلاباً في الصحافة العربية كلها وإذا الصحف اليومية تتابعه فيه ، واذا بها تقطع مرحلة جديدة كبيرة من مراحل تطورها . ولولا جرأة تقلا باشا لكان من المحتمل بل من المؤكد أن تظل الصحف اليومية في مصر وغيرها من بلاد الشرق العربي خالية من الصور ، أعني متخلفة عن مثيلاتها في اوربا واميركا بثلاثة اجيال !

***

وكان تقلا باشا يؤمن بأن اصدار الجريدة عمل متعدد النواحي ، ولكنه متماسك او ينبغي ان يكون متماسكاً ، فكان يرى ان الغلطة الصغيرة في ناحية صغيرة من نواحي هذه الماكنة الضخمة التي تحرر المقالات وتجمع الاخبار وتلصقها وتطبعها وتوزعها على القراء لابد ان يؤثر تأثيراً سيئاً في سائر النواحي . وكان يضرب المثل دائماً بموزع الجريدة هذا العامل البسيط في دائرة هذه الماكنة الضخمة ، يقول لنفرض انه أهمل في توصيل الجريدة الى المشترك أو تأخر في ذلك ، ماذا تكون فائدة الجهد الكبير الذي بذل في اعداد الجريدة وطبعها ؟ من أجل هذا كان حريصاً على ان يسير كل شيء بدقة . وكان يتهاون في الكثير مما يتصل بشخصه في معاملاته الخاصة ، ولكنه لم يكن ليتهاون قط في خطأ يمس جريدته من قرب أو بعد

ولم يكن ينظر للجريدة على انها عمل للربح أو للتجارة ، ولكنه كان يراها مجموعة تقاليد صالحة ، أساسها الخلق الفاضل والتعاون الكامل . ولم يكن يغيظه من انسان يشتغل معه ان يكون قليل الكفاية ضعيف الانتاج ، بمقدار ما كان يغيظه ان يكون فاسد السيرة ضعيف الخلق . ولم يعرف عنه قط انه تخلص من واحد من النوع الأول ، ولكن عرف عنه دائماً انه كره التعاون مع النوع الثاني . لذلك كان يتحرى في كل من يضمهم الى أسرة « الاهرام » ان يكونوا من ذوي الاخلاق الفاضلة أولاً حرصاً منه على اسم « الاهرام » وسمعتها

***

وقد حسن من « الاهرام » أسرة ، لا مجازاً ولكن حقيقة . كان يعد كل عامل فيها سواء كان في قسم التحرير أو في مقاعد التحرير فرداً من أفرادها يعنى بأمره ، ويتحرى شؤونه ويشاركه في مسراته ومتاعبه . ويبذل له في السر والعلانية ما ييسر عليه حمل الحياة . وكان دمقراطياً بفطرته وروحه . لم تكن الديمقراطية عنده — كما هي عند الكثيرين — ألفاظاً تقال أو مبادىء تقرأ وتحفظ ثم تروى للمباهاة ، ولكن كانت بعض روحه وبعض

همه تحس بها في نظرته وكلمته وتصرفه . لم تكن تصنعاً ولا تكلفاً ، ولكن سجية وطبعاً . وكان يكره لذلك ان يبدو في مظهر صاحب العمل المالك ، فكنت اذ تراه يتنقل بين مكاتب المحررين والموظفين ، وبين الصناديق والآلات يلاحظ هذا ويصاحك ذاك ، ترى رجلاً لا فارق بينه وبين غيره ، وكلهم موظفون عنده

***

كان هذا الخلق الرضي بعض فوائم النجاح الذي صادف تقلا باشا في عمله الصحفي . فقد جمع بين صفتين ، قلَّ ان يحسن انسان الجمع بينهما كما فعل تقلا باشا . وأعني بهما صفة صاحب العمل الرأسمالي ، وصديق العمال الاشتراكي . لم يكن أحد ممن اشتغلوا معه يضيق به ولا برأسته . كان مع دقته وحرصه على مصلحة العمل ، يشعر الجميع بأنهم يعملون لانفسهم وليس له . ومن هنا كان حرصه الدائم على ان يشعر الكل بأن « الاهرام » لهم ، جريدتهم كما هي جريدته بل أكثر مما هي جريدته

وقد وضع « الاهرام » في هذا الصدد طائفة من التقاليد . فلم يكن من سياسته ، قط ان يستغني عن أحد ، بل كان من سياسته دائماً ان يحتضن الجميع ويستبقي الجميع ، ويحاول اصلاح من يبدو انه فاسد ، وتشجيع من يبدو انهُ متكاسل ، فكان بهذا يروح الطيف الخير ، القوة الهائلة الدافعة وراء ماكينة « الاهرام » الضخمة ، يجعلها تعمل وتنتج في جدٍّ وسكون وصبر وابتسام

وكان يؤثر في استخدام عماله وموظفيه وعرريه ذوي من كانت لهم صلة عمل سابقة «بالاهرام» فأولادهم واخوتهم مقدمون عنده على من عداهم ، يؤثرهم ببره وعطفه ورعايته وأحسبه لم يكن في ذلك متصنعاً ، بل كان جارياً مع سجية أصيلة فيه . فقد كان الوفاء بعض خلقه . الوفاء للاهل والاقارب والصحاب والوطن ، بل الوفاء للامكنة والرسوم والخيطان ومن كان يستمع اليه وهو يتحدث عن أمه وأبيه ، عن تأسيس « الاهرام » وجهد مؤسسيه يشعر ان الرجل يفيض برًّا بوالديه تماً يفيض برًّا بما ورثاه — « الاهرام » العزيز . ظلَّ صديقاً لاصدقائهما ، محسناً من كانا يحسان ، دائم الذكر لهما والاشادة بفضلهما عليه وعلى الاهرام

ولم تكن عين تقلا باشا في مصر فحسب ، بل كانت على العالم كله يحب أن يوثق الصلات بينهما . ولا تظل مصر منعزلة عن موكب الحضارة . ولذلك عني عناية خاصة بقسم الانباء الخارجية في جريدته ، وجعل لها في أهم العواصم العالمية مراسلين ، اختارهم من صفوة رجال الصحافة فيها ذوي المقام المحترم والمكانة المحفوظة ، ولم يدخر في سبيل ذلك — في عادته — جهداً ولا مالاً . كان ثمة هدف يضعه أمام عينيه ، فلا بد أن يحققه مهما يكن الثمن باهظاً .

وقد حققهُ وكفل لقراء العربية خلاصة وافية لأهم الانباء الخارجية في السياسة والاقتصاد والاجتماع والآداب والفنون

وكان تقلا باشا مخبراً من الطراز الاول ، يوجه مخبريه ومندوبيه ، ويرسم لهم الطريق الصحيح للصحافة الاخبارية الراقية . يدلهم على المصادر التي يستقى منها الخبر ، والوسيلة اليها ، ثم على الاسلوب الذي يكتب به الخبر . وكان يراجع كل ما ينشر في « الاهرام » اذا تولى رآسة التحرير في غيبة الأستاذ انطون الجميّل بك ، فكان يمسك بيده قلماً ضخماً أحمر أو أخضر ، ويلقي نظرة على الورقة ، وسرعان ما يضع قلمهُ على الخطإ الذي يراه ، أو على الملاحظة التي تعن لهُ . فاذا أردت أن تقرأ بانعام ، وأردت أن تلاحظ الخطأ أو توجه الملاحظة وأنفقت أربعة أمثال الوقت الذي أنفقهُ تقلا باشا في النظر الى الورقة ، لم تجد غير ما وجده تقلا باشا . ذلك انهُ كان دقيق الحس ، صادق النظرة ، سريع الفهم ، ملتمع الذكاء ، فلم يكن يحتاج إلاّ الى ربع الوقت الذي يحتاج اليهِ غيره ليفهم ما يفهمهُ ويلاحظ ما يلاحظهُ وينجز ما ينجزه

وكان حبه للاستاذ أنطون الجميّل بك واحترامهُ اياه بعض مظاهر تقديره للخلق الفاضل والكفاية النزيهة . جاءه يوماً طلاب جامعة فؤاد من القائمين بمشروع القرش ، طالبين اليهِ ان يتبرع للمشروع على عادتهِ كل سنة ، فسأل بكم تبرع رئيس تحرير « الاهرام » فقالوا له بجنيهين فقال وأنا أيضاً أتبرع بجنيهين

***

فأصاب برحلة تقلا باشا ليس مصاب الصحافة العربية فحسب ، ولكنهُ مصاب الأخلاق الكريمة القويمة ، والشخصية الناجحة المسيطرة في غير عجب ولا غرور ، الموجهة في غير من ولا زهو ، العاملة في غير ضجة ولا اعلان . وقد أحسّ الجميع فقده احساساً عميقاً ، من عرفوه ومن لم يعرفوه ، وانتظمت جنازتهُ كبراء الدولة في المناصب الرسمية ، وفي مراكز القيادة الشعبية والتوجيه القومي . لم يبقَ في مصر رجل ذو مقام لم يعزّ في تقلا باشا ، ولم يأسف لوفاته ، فكان يوماً يوم حداد عام

وقد طويت ، بموت جسده ، صفحة حياته العامة بيننا ، ولكن ذكره سيظل خالداً أبد الدهر . وحينما يكتب الكاتبون تاريخ الصحافة المصرية ، بل الصحافة العربية ، سيجعلون لتقلا باشا صفحة من أزهى صفحاتها . فقد كان من أوائل الذين كفلوا لها المقام الذي تستحقهُ . لم يعطها مثله فحسب ، ولكن أعطاها قلبهُ وعقله . ووهب لها آخر نصف حياته . فأضفت عليهِ المجد الذي لم تضفه على أحد قبله .